

مقدمة

نهدف من وراء ترجمة هذا النص ودرسه، وهو أقدم نص أدبي كُتِبَ في اللغة القشتالية، وبالتالي في الأدب الإسباني، إلى أكثر من غرض. الإسهام بطريقة إيجابية في إلقاء بعض الضوء على ما بين الأدب العربي والآداب الأوربية من صلات. ودعوة إلى دراسة الأدب الأندلسي في ضوء منهجية جديدة متطورة، تدرسه داخل نطاق الآداب التي عايشها على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، فتأثر بها، وأثر فيها. ومحاولة لإبداء رأى فيما أتصوره خطأ وقعنا فيه، وتسير عليه مدرسة الاستشراق الإسبانية، امتدادا لتقاليد وليدة أيام متخلفة، أعشاهما التعصب، وأفسدت أبحاثها الفكرة المسبقة، ولم يعتصم بالحق من علمائها غير القليل.

خطأ الجانب العربي مصدره فكرة تفرض نفسها سلفا على الدارسين بعامة، وفي حقل الأندلسيات على نحو خاص، وهم أن المسلمين قدموا شبه الجزيرة الإيبيرية بشرا ولغة، فنوناً وعبادات، فلم يجدوا أى شئ فوقها، ثم استقروا بمعزل عن غيرهم، وأبدعوا حضارة أزهرت لزمن طويل، لم تأخذ من الأرض التي ترعرعت عليها شيئاً، وأن هؤلاء المسلمين كانوا كل عناصر الحياة، عبر الأندلس كله، وعلى امتداد قرون تسعة، ثم خرجوا بعدها، أو أخرجوا، دون أن يتركوا وراءهم أثراً. وكان الحق شيئاً آخر، فمنذ بداية القرن العاشر أخذت دولة مسيحية، أو دول عديدة، تتكون في شمال شبه الجزيرة على مهل، وتأخذ أشكالاً إدارية وسياسية وحصارية مغايرة للدولة الإسلامية القوية في الجنوب، وبدأت هذه الدوليات تنمو وتتسع، ويصبح لها أدها ونها وحصارتها. وما من شك في أن المسلمين في الجنوب كانوا أكثر تقدماً، وأرق

تخصراً، وأبدع في مجال الفن، لكن ما من شك أيضاً في أن التبادل الحضارى بين الجانبين لم يتوقف لحظة واحدة. وأن الأخذ والعطاء كان مستمراً حتى في أشد ظروف الحرب ضراوة، يعطى المسلمون كثيراً، ويأخذون قليلاً، ولكنهم كانوا يأخذون على أى حال. وكانت الدولة المسيحية في الشمال نافذة يطل منها المسلمون في الجنوب على ألوان أخرى من الحضارة، ربما كانت أدنى مما عندهم، ولكنها تمثل حضارة متميزة، وعادات مغايرة، وثقافة تنتمى إلى عالم آخر.

إهمال دراسة الجانب المسيحي، وبخاصة في الجوانب الأدبية والثقافية والدينية، جعل الدراسات الأندلسية تقليدية. وإذا كنا ندرس الحضارة الأندلسية لذاتها، فنحن ندرسها أيضاً لأنها الرافد الذي عاشت عليه أوروبا قبيل نهضتها الأخيرة، وتبع مساره وما حل لا يتأتى لنا دقيقتاً واضحاً إلا إذا عرفنا ما الذى كان يحدث في الجانب المسيحي من الأندلس، ماذا أخذوا عن مواطنهم المسلمين وما الذى أعرضوا عنه، ماذا كان عندهم من أشكال أدبية رومانية أو يونانية أو جرمانية، لم يحاول المسلمون أن يفيدوا منها، أو حاولوا وأخفقوا، وما الذى اقتبسوه منهم، أو قلدهم ونجحوا في التقليد. والنص الذى بين أيدينا ليس هو النص الأدبى الوحيد الذى يعرض لقضية إسلامية مسيحية مشتركة، وأبطاله ومسرحة أحداثه من الجانبين.

وأكثر من ذلك، ثمة نصوص عربية كثيرة ضاعت، أو تعتبر ضائعة حتى الآن، ثم وصلتنا أصولها مترجمة إلى إحدى اللغات الرومانشية التي كانت تشارك اللغة العربية حياتها على امتداد شبه جزيرة إيبيريا، ولعل أشد النصوص إجماء وطرافة، قصيدة شعرية تبكى سقوط بلنسية في يد السيد، ضاع أصلها العربى، ووصلتنا في اللغة القشتالية في صور ثلاث: منشورة في عامية أهل الأندلس

العربية، ورُسمت في حروف لاتينية، وهي ظاهرة فريدة قلما نجد لها مثيلاً في العصر الوسيط، ثم ترجمة إسبانية لها كُتبت في نثر قشتالي جميل، وأخيراً تُرجمت شعراً، في قصيدة شعبية جميلة، وأرجح أنها كانت تُغنى، وشاعت على أفواه الناس، واحتفظت بها الذواكر لأمد طويل، وظلّت تنتقل رواية على امتداد خمسة قرون أو تزيد، حتى جاءت المطبعة إلى الأندلس في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، مع أيام الإسلام الأخيرة، فطبعت مع مجموعة من القصائد الشعبية، وكلها تدور حول السيد^(١). إن الأخذ والعطاء بين الجانين كان على أي حال أوسع وأعظم مما تتصور بكثير.

كان الإسبان ومازالوا، أكثر منا معرفة بحقائق الأشياء في الجانين الإسلامي والمسيحي، وإجادة اللغة العربية ضرورة تقتضيها طبيعة المنهج، لمن يريد أن يتصدى للدراسات الأندلسية عندهم في أي جانب منها، وإلى حد ما لمن يريد أن يتخصص في دراسة تاريخ إسبانيا الحديث، أو بعض قطاعات الأدب المعاصر أيضاً. ولتحقيق هذا الغرض، أصبحت اللغة العربية، إلى جانب اللغة اليونانية القديمة، واحدة من اللغتين اللتين يجب على كل طالب في الدراسة العامة لكليات الآداب، ومدتها عامان، أن يُلمّ بواحدة منها على الخيار. ثم تُدرس بعد ذلك تخصصاً، في أقسام مستقلة، تنهض عليها وتعنى بها، أدبا وتاريخاً ولغة وفلسفة وتشريعاً، وتخدم بقية الدراسات الأخرى، المرتبطة بفهم الإسلام وحضارته. وتوجد هذه الأقسام في عدد من الجامعات الكبرى، أوضحها أقسام اللغة العربية في كليات الآداب بجامعة مدريد وغرناطة وبرشلونة وأليكانتي. وإلى جانب هذه الدراسات الجامعية أنشأت

(١) انظر: د. الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الثانية،

دار المعارف ١٩٨٣، الفصل: «مرثية بلنسية ضائعة».

الحكومة الإسبانية عام ١٩٣١ مدرسة الدراسات العربية Escuela de Estudios Arabs في كل من مدريد وغرناطة، للأبحاث المتخصصة العالية، وعنها كانت تصدر مجلة الأندلس Al-Andalus، وتمتع بشهرة عالية مرموقة، ومكانة دولية ممتازة، وظلت تواصل صدورها بانتظام مرتين في العالم، إلى أن توقفت عام ١٩٨٠، وحلت مكانها أخرى تحمل اسم القنطرة.

ومثل هذا الفهم الذكي لم يغب عن مصر العظيمة أيضاً، فأنشأت المعهد المصري في مدريد عام ١٩٥٠، تحاول معه وبه أن تجعل من الدراسات الأندلسية عملاً علمياً له منهج، ويجرى وفق قواعد وأصول، غير أن المعهد المصري لم يستطع أن يؤدي شيئاً من الرسالة المرجوة منه، لأسباب لا سبيل إلى بسطها في هذا المكان.

لكي نؤرخ للأندلس، أو ندرس أدبه، أو نتبع روافد حضارته فيما وراء جبال البرانس، لابد من معرفة اللغات التي عايشت العربية هناك زمنياً، والبشر الذين ناكبوا المسلمين، وأن نضع تحت تصرف الباحث المتخصص الكتب والمجلات، مما ينشر في العالم الذي يتحدث الإسبانية، وهو أوسع من إسبانيا وأضخم، لأنه يشمل قارة كاملة، ومصر الرائدة لها دور كبير ينتظرها في هذا المجال.

والخطأ الثاني، ويشترك فيه الإسبان والعرب على السواء، هو القول بأن الصراع الذي دار على بطحاء الأندلس كان بين العرب والإسبان. وهو زعم بعيد عن الحقيقة، فلم تكن ثمة قومية عربية، ولم يكن المرء ينتمي إلى العرب كجنس، ولعل هناك من كان ينتمي إلى قبيلة، وليس إلى قوم لهم خصائص وصفات. ولم تكن القومية الإسبانية قد وجدت، وكلمة إسبانيا بمعنى دولة لم تعرف إلا في زمن متأخر جداً ربما في أواخر القرن الخامس عشر، أما قبله

فكانت تعني امتدادا جغرافيا، مكانا محددًا من الأرض، وملحمة السيد على امتدادها، وما فيها من حروب وصراع بين المسلمين والمسيحيين، لاتأق على كلمة إسبانيا إلا ثلاث مرات، وأكاد أشك أنها من إضافات النسخ.

ولم يكن سكان الأندلس عربا بالدم، وإنما كانوا خليطاً عجيباً لا يمثل العرب في داخله إلا اليسير، أما الكثرة الغالبة فكانت تنتمي إلى أقوام آخرين، من قوط ولاتين وفينيقيين، أو من بربر وأفارقة وصقالبة، ولم يكن الأندلس مستعمرة تابعة للخليفة في دمشق إلا على امتداد خمسة وأربعين عاما فحسب، وفيما بعدها كان دولة مستقلة، وتحكم جانباً من شمال أفريقية أحيانا، وليس يهم كثيراً أن تكون الأسرة الحاكمة أجنبية جاءت من خارج شبه الجزيرة، فمثل هذا العمل كان مقبولا وشائعاً في العصور الوسطى وما بعدها، وأغلب الأسرات الملكية التي كانت تحكم أوربا قبيل الحرب العالمية الأولى كانت تنتمي، في الأصل، إلى شعوب غير التي يقومون عليها ملوكا. ولم يكن لذريق ملك إسبانيا قبل الفتح الإسلامي بأكثر إسبانية من عبد الرحمن الداخل، أو عبد الرحمن الناصر، أو المنصور بن أبي عامر، نعم كانت اللغة العربية تزاحم الرومانشية في ألسن الناس، واللاتينية في الكتابة والتسجيل، وتتقدم دونها في مجالات الثقافة والأدب والتعبير الجميل، وكان الإسلام دين الدولة والغالبية، لكننا سنرى بعد قليل أن المسيحية أيضاً بدأت تبلور في شكل دولة أو دويلات، وأن الصراع على امتداد القرون التسعة، وحتى أزيد قليلا، لم يكن بين العرب والإسبان، وإنما كان بين الأندلسيين المسلمين والأندلسيين المسيحيين، ولقد كان الأندلسيون المسيحيون يعرفون أنهم يقاتلون شركاء لهم في الوطن يختلفون معهم في الدين، وعندما ما تعرض الأندلس لهجوم المرابطين ثم الموحديين من بعد، رسم المسيحيون سياستهم لإجلاء هؤلاء القادمين، لينفردوا وحدهم بالمسلمين الأندلسيين ما في ذلك

شك، فإذا لم يكن إلى ما يريدون سبيل فلا بأس من دعم المسلمين الأندلسيين، ليثبتوا في وجه المسلمين القادمين من وراء المضيق. وعندما كانت تحف قبضة رجال الدين المسيحيين، أو يظهر على المسرح السياسي ملك مسيحي مهاب، تبدو هذه الفكرة أشد ما تكون وضوحاً، لقد كان ألفونسو السادس يردد في رسائله ومكاتباته أنه: «ملك الملتين، وسيد الديانتين»، وطمح أن يكون كذلك.

كان المسلمون والمسيحيون في الأندلس يختلفون ظاهراً، أما في العمق فينبها الكثير المشترك. كلاهما كان فاسداً وغادراً وقاسياً، وإذا كان المسلمون لا يكادون يهتمون بتطبيق نصوص الشريعة في الحياة العملية، ويفضلون استشارة المنجم على الفقيه، فقد كان بين المسيحيين من لا تعنيه الكنيسة، ويدير ظهره للقيس، وإذا كان بين المسلمين من لا يجد غضاضة في أن يقاتل تحت راية قائد مسيحي، ماجوراً أو هاوياً، فقد كان هناك من المسيحيين أيضاً من لا يجد حرجاً في أن يقاتل تحت راية مسلم، وضد شريكه في الدين.

أما تصوير العرب بأنهم غزاة، وأنهم احتلوا إسبانيا، وأقاموا فيها محتلين، حتى جمع الإسبان شملهم وألقوا بهم في البحر، فشيء صنعه رجال الدين الكاثوليك فيما بعد انتصار المسيحيين على المسلمين، عندما نشأت القوميات في أوروبا، ولم يعد الدين يلعب الدور الأول، وغير كاف وحده لإثارة العامة، فاقتضى سد المنافذ أمام الإسلام بوصفه ديناً، أن يصور للجهاير على أنه دين العرب المستعمرين. وأرضت الفكرة، وصيغت في مهارة فائقة، الغرور العربي فاطمأن إليها، وانسأقت البقية وراء المغرورين جهلاً. والحق أن من يتتبع تاريخ الأندلس أيام المسلمين، فسيجد الصراع بين الطوائف، عنصرية أو طبقية أو دينية، لم يتوقف لحظة واحدة، لا عند المسلمين ولا عند المسيحيين.

وفي إسبانيا المسيحية ازداد الصراع حدة وعنفاً، فلم يكفد يتوفى فيليب الثاني، أكبر ملوك إسبانيا بعد إجلاء المسلمين، حتى سقطت في حروب أهلية متصلة، وكانت بين الإسبان أنفسهم، وكلهم من الكاثوليك. والحرب الأهلية آخر ما نعرفه من ألوان هذا الصراع، وامتدت طيلة أعوام أربعة، من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩، وخسر فيها الإسبان قرابة مليون من البشر، إلى جانب ما أصاب كل مرافق الحياة من تخريب وتدمير، كانت لونا من صراع العصور الوسطى بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس، غير أنها جرت هذه المرة تحت شعار الجمهوريين والملكيين، بين دعاة سلطان الكنيسة والمناهضين له.

لقد كان الصراع في الأندلس بين المسلمين والمسيحيين، وكلا الجانبين يتيمان إلى وطن واحد، وإن فرقت بينهما العقيدة، وانتهى الصراع لصالح الطرف الأخير، وكان سقوط الإسلام الأندلسي، إلى جانب صقلية، الاستثناء الوحيد من القاعدة التي تقرر «حيثما انتشر الإسلام استقر إلى الأبد».

لم يكن القصد من الترجمة التي قمت بها للملحمة، أن أقدم نصاً أدبياً رقيقاً وجميلاً ومثيراً، وإنما كانت الغاية أن أضع بين يدي القارئ العربي الذي لا يعرف الإسبانية، أو يعرفها معرفة متواضعة، أو يجيدها والنص لا يتوافر له، وثيقة ذات أهمية قصوى، تعين الباحث على تفسير ظواهر كثيرة، وتثير في أعماق الدارس لتاريخ الأندلس وأدبه أكثر من سؤال. ومن ثم عمدت إلى الترجمة المباشرة من اللغة القشتالية، وفيها كتبت الملحمة أصلاً، فلم تكن اللغة الإسبانية قد وجدت بعد، ولم أستخدم النصوص الإسبانية الحديثة التي عمدت إلى النص القشتالي القديم، فكتبته في اللغة السائدة الآن شعراً أو نثراً، لأن الأدباء المحدثين كانوا يتجاوزون النص القديم، في مواضع كثيرة، زيادة أو نقصاً، جريا وراء الجملة الجميلة، أو استجابة لدواعي العروض والقافية، والشعر الإسباني يعرفها ويقدرها ويحرص عليها، أو لاعتبارات سياسية. مثلاً

الطبعة التي أصدرتها دار الشباب Editorial Juventud في برشلونة، وهي من كبرى دور النشر في إسبانيا، وتتبع الكنيسة الكاثوليكية، في سلسلة كتاب الجيب، وصدرت الطبعة الأولى منها عام ١٩٦٨، في طبعة أنيقة ورخيصة، وتضم النص القديم وهو في اللغة القشتالية، إلى جانب النص الحديث وصدعه **ألبرتو مانينت** Alberto Manent في شعر إسباني حديث رقيق وعذب، ومهداً لها بدراسة مركزة ومفيدة **دمسو ألونسو** Damaso Alonso، رئيس المجمع اللغوي الإسباني، وقدم لها أستاذ آخر للأدب بترجمة مختصرة عن حياة السيد، وتولى فنّان توشيتها بالرسوم. حشد من الأساتذة يجعلها أكثر من غيرها انتشاراً وقبولاً، غير أن الكنيسة الكاثوليكية وتجمعها مع الصهيونية العالمية الآن مصالح مادية كثيرة ومعقدة، جعلت الشاعر الحديث، أو عمد هو فهمها منه دون طلب مقصود، يحذف من بيت الشعر الذي يتحدث عن صلب المسيح كلمة اليهود، في أرق قصيدة تتضمنها الملحمة، لأنها صلاة مسيحية خاشعة، كان النص الأصلي يقول :

بعثت أيعازر من قبره لأنّ هذه كانت إرادتك
وتركت اليهود يأخذونك إلى ما يسمى بجبل جلجلة
وفي جلجلة وضعوك على الصليب وتركوك تموت

فحذف كلمة اليهود من البيت الثاني، واستعاض عن الاسم الظاهر بضمير الغائب، وهو ما يجعل الفعل في معنى المبني للمجهول، فلا يعرف القارئ على من يعود، لقد أصبحت الأبيات :

وتركتهم يأخذونك إلى جلجلة، وهناك اقتربوا منك.

وحملوك إلى جبل جلجلة، وهناك مت على الصليب^(١).

(١) القصيدة رقم ١٨.

غير أن النص القشتالي رغم كل الحواشي المفسرة التي ألحقها به العالم الإسباني رامون مننديث بيدال Ramon Menéndiz Pidal ، كان يبدو في بعض اللحظات غامضاً غير مفهوم، حتى على العالم اللغوي الكبير نفسه، ومن ثم كان بين يدي وأنا أترجم، غير النص الشعري الذي أشرت إليه سابقاً، الترجمة النثرية التي قام بها الأديب المكسيكي الشهير ألفونسو ريبيس Alfonso Reyes ، وترجمة نثرية جاءت في شكل قصة قام بها أنخل بييارتا Angel Villarrta . ورأيت أن أفيد من التراجم الأجنبية التي التقت لغاتها مع اللغة القشتالية في العصر الوسيط، فكان لدى منها آخر ترجمة فرنسية للملحمة، من عمل أوجين كولر Eugène Kohler وصدرت في باريس عام ١٩٥٥، ثم الترجمة البرتغالية وقام بها ألفونسو لويس فييرا Alfonso Lopez Vieira ، وصدرت في لشبونة عام ١٩٢٩، وكلها أعانتني على الفهم، ولكنها لم تصبح بديلاً عن النص الأصلي أبداً.

فما يتصل بالأسماء الأندلسية المسيحية الواردة في الملحمة، ولمعظمها صور عربية قديمة، آثرت أن أكتبها في صورتها القديمة، أما الأسماء التي لم ترد في المراجع العربية، ولها أكثر من صورة نطق في الإسبانية، فقد تحيرت أسهلها وأقر بها إلى الأذن العربية، وأياً ما كان الأمر فعند دراستي لأبطال الملحمة، أو في المعجم الجغرافي للأمكنة وسألحقه بآخر الكتاب، سأق على الصور المتعددة، في أشكالها المختلفة. كذلك أبقيت على الألفاظ العربية التي استخدمها الشاعر في الملحمة، في صورتها الأصلية، كلما كان ذلك ممكناً، رغم أنها غير معهودة في العربية المعاصرة، أو عربية المشرق، لكي يبقى طابع التأثير العربي في الألفاظ الملحمة ملموساً واضحاً.

وشخصية السيد في التاريخ تختلف عنها في الملحمة، على نحو ما سنرى في الدراسة والنص، ومن الواضح أن الشاعر الجوال - أو الشعراء - الذي قال

الملحمة كان مسيحياً، ولو أنه دون ما شك كان يعرف اللغة العربية، ويعيش بين المسلمين، ومن ثم فهو يلتزم وجهة النظر المسيحية، وحاول أن يصنع من السيد بطلا مسيحياً كاملاً، ولم يكن السيد كذلك لا واقعاً ولا تاريخاً، ولكنك لا تجد في الملحمة كلمة واحدة تنضح حقداً على المسلمين، وهى بهذا أكثر وفاء للواقع، حين تصور ما كان من علاقات بين المسلمين والمسيحيين. ولوضع السيد في مكانه الحق من التاريخ كانت الدراسة التى سبقت النص بجوانبه المختلفة، وإذا كانت مصادرى فى جملها أجنبية، وإمكانيات الطباعة لا تتيح لى أن أرد كل خبر إلى مصدره، فقد ألحقت بآخر الكتاب قائمة بالمصادر التى رجعت إليها. ولكنى أود أن أشير هنا، وعلى نحو خاص، إلى عالين جليلين : أما أولهما فالعالم الإسباني رامون مينيديث بيدال (١٨٦٩ - ١٩٦٩)، ومؤلفاته ودراساته عن السيد، وعن الأندلس فى العصر الوسيط، وعن اللغات الرومانشية وما يتعلق بها، لا تقع تحت حصر، وتتدرج بين الموضوعية الجادة، والانعطاف القومى المعتدل، غير أن الحيداد العلمى فى دراساته أوضح من أى اتجاه آخر.

وأما الثانى فهو المستشرق الهولندى رينهارت دوزى Reinhart Dozy (١٨٢٠-١٨٨٣)، ووقف حياته وعلمه وقلمه على الأندلس، ودرس أحداثه ورجاله بروح متعاطفة، ولكنها معتدلة وموضوعية، وأفدت كثيراً من دراساته، وضمنى أن أشير بنوع خاص إلى كتابه : « أبحاث عن تاريخ إسبانيا وأدبها خلال العصر الوسيط Recherches sur L'Histoire et la Littérature de l'Espagne, Pendant le moyen age ».

ويقع فى مجلدين، والطبعة التى أفدت منها هى الثالثة، وصدرت فى ليدن - هولندا، عام ١٨٨١.

لقد تُرجمت هذه الملحمة إلى كل لغات العالم الحية، وترجمتها إلى اللغة العربية تفرضها ضرورات أدبية وتاريخية، وتجعل منها واجبا ملحا. ورغم هذا فقدت ترددتُ طويلا أمام ترجمة هذا النص، وأمام الدراسة التي سبقته، لأن القاهرة فقيرة للغاية في المصادر والمراجع التي باللغة الإسبانية، لكن التراجع أمام الصعاب يعود بنا القهقري، أو يجمد حركتنا، فلا نمضي خطوة إلى الأمام، ومن ثم آثرت أن تخرج على النحو الذي يجدها القارئ عليه، ومع الزمن أمضى بها أنا، أو غيري، إلى ما هو أكمل وأوفى. وحسي أنني ما أبقيت من جهدي شيئا.

والله الموفق للصواب.

٣ شارع صدق - الدقي

الجيزة - مصر

١٤ من رجب ١٣٩٠ هـ

١٥ من سبتمبر ١٩٧٠ م

الطاهر أحمد مكى

ت ٣٦١٣٣٠٦

٣٤٧٩٣٩٢

obeikandi.com

تمهيد

حققت حملة المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية في مطلع القرن الثامن الميلادي انتصارات حربية ذات طبيعة فذة، وفتح انهبار المملكة القوطية بعد ضربات سريعة، حاسمة ومتلاحقة، ورغم جيوشها الكثيرة العدد، أمام القلة المهاجمة من المسلمين، الطريق لمزيد من الأفاصيص والأساطير، تتخذ من الحقائق مادتها، ولكنها تضيف إليها من خيالها الشعبي الشيء الكثير، ومع امتداد الزمن، والاعتماد على الذاكرة، تنوسيت حقائق التاريخ أو جلها، ومع تناسيها كان الخلق الشعبي يتولى نسج الوقائع، ورسم الشخصيات، وبناء الحوار، وهو في ذلك يستجيب لرغائب الناس أكثر مما يحرص على صحة الأحداث، فقد كانت القصة تنشد تسلية، أو استشارة، ومن ثم كان القاص أو المنشد أو الشاعر، يرعى هذا الجانب في مستمعيه، شيوخاً أو شباباً، مسلمين أو مسيحين، محافظين أو متحررين، رجالاً أو نساء عربياً أو بربراً أو لاتين، وما يثير ويحظى بإعجاب أى واحد من هؤلاء غير ما يعجب الآخرين.

كانت أفاصيص الفتح الأولى تدور حول ما لقي المسلمون من غنائم، وما حازوا من تحف وثروات، فطارق بن زياد عندما فتح مدينة طليطلة وجد فيها جواهر ثمينة، منها مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة، وإيواناً ممتلئاً بأواني الذهب والفضة، وبلغ من سعة الإيوان وعرضه أن الخيل تستطيع أن تجرى فيه بفرسانها، وغير ذلك كثير، أصابه ملوك الأندلس القدامى غنيمة من بيت المقدس، حين حضروا فتحها مع بختنصر ومثله مما كانت الجن تأتي به لنبي الله سليمان. وحاولت كذلك أن تملأ عن طريق الخيال الفجوات التاريخية التي صاحبت عملية الفتح وانتهت بانتصار

المسلمين. كان جيش المسلمين في البدء بقيادة طارق لا يتجاوز اثني عشر ألف جندي، وكان جيش لذريق Rodrigo في مائة ألف أو يزيد، وليس مهما أن يكونوا كذلك حقاً، وإنما المهم أن المحاربين تصورهم في هذا العدد، وكان جيش المسلمين مهاجماً، وجيش القوط مدافعا، والمسلمون يقاتلون على أرض يجهلونها، والقوط في بلدهم يعرفون دقائقها وخفاياها، ومع ذلك انتصر المسلمون وهزم القوط، فعجزت العامة عن تفسير أسباب النصر والهزيمة علمياً، وردها إلى أسبابها السياسية والاجتماعية، فاستعاضوا عن ذلك بالخيال والأساطير.

قالوا في تفسير مساعدة يوليان Julian حاكم سبته الإسبان للمهاجرين المسلمين وحقده على رئيسه الملك القوطي لذريق، إن الأمراء الإسبان قبل الفتح الإسلامي درجوا، طبقاً لعادة متبعة، على إرسال أطفالهم إلى قصر الملك في طليطة، لينشأوا على طاعته، ويتأدبوا بأدبه، ويكونوا في خدمته، فإذا كبروا أنكح بعضهم بعضاً، وحمل مهورهم، وتولى تجهيز إنائهم، استئلافاً لأبائهم، وضماناً لولائهم، فاتفق أن يوليان أرسل بابنته، وكانت كريمة عنده، أثيرة لديه، فلما كبرت تكشفت عن جمال بارع، وفتنة أسرة، فلما وقعت عليها عين لذريق أعجبه، وهام بها حبا، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضها، فاحتالت حتى أعلمت أباهاً بذلك سرا، بمكاتبة خفية، فأحفظه شأنها، واشتدت حميته، وأقسم ليزيلن ملك لذريق وسلطانها، ثم عبر المضيق في ديسمبر أصعب أوقات الشتاء، فصار بالأندلس، وبلغ طليطلة، ولقى الملك، فأنكر عليه مجيئه في مثل ذلك الوقت، وسأله عما لديه، وما جاء فيه، ولم جاء في مثل وقته؟ فذكر خيراً، واعتل بذكر زوجته، وشدة شوقها إلى رؤية بنتها التي عنده، وتمنيها لقاءها قبل الموت، وإلحاحها عليه في إحضارها، وأنه أحب إسعافها، ورجا بلوغها أمنيتهما، وسأل الملك إخراجها إليه، وتعجيل إطلاقه

للمبادرة بها، ففعل، وقد توثق من الفتاة بالكتان، وأفضل على أبيها، فانقلب عنه عائدا إلى سبتة. وذكروا أن لذريق حين ودع يوليان قال له: إذا قدمت علينا في المرة التالية فتخير لنا من الصقور التي لم تزل تطرفنا بها، فلإنها أثمر جوارحنا إلينا، فقال له: أيها الملك، وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك صقورا ما دخل عليك مثلها قط، يعرض بالذي أضمره من السعى في إدخال رجال العرب عليه، وهو لا يظن. ولم يكد يوليان يعود إلى سبتة حتى لقي موسى بن نصير حاكم شمال إفريقية من قبل الخليفة الأموي، وكلمه في غزو الأندلس ووصف له حسنها وفضلها، وما جمعت من أشتات المنافع، وأنواع المرافق، وطيب المزارع، وكثرة الثمار، وثرارة المياه، وهون عليه مع ذلك حال رجالها.

ذلك هو مجمل القصة كما أوردته كتب التاريخ العربية، وبدى أنها تجنبت الدخول في التفاصيل العاطفية التي يسرف الخيال الشعبي في تصويرها، ووجودها في أكثر من مصدر يوحى بأن شيئا ما من القصة حدث فعلا، لكن الذي لا شك فيه أنها لم تكن السبب وراء غضب يوليان، فثقل هذا العمل لم يكن مستكرها إذ ذاك في أوساط الطبقة العليا، ولم يكن ينظر إليه باشمزاز على النحو الذي تراه عليه الطبقة الوسطى أو الجانب المحافظ منها، في عصرنا الحاضر، ولا أظن الطبقة العليا في أيامنا هذه، أو ما قبلها، ترى فيه إثما كبيرا، أو جرما خطيرا، يستأهل أن تقوض من أجله مملكة، وأن يخون في سبيله حاكم وطنه. وأيا ما كان الأمر فقد أصبحت القصة، وخاصة في اللغة الإسبانية في العصر الوسيط ومطلع الحديث. نبعاً قيّما يغترف منها القصاص، فصيغت منها وحوّلها روايات كثيرة شعبية مجهولة المؤلف، أو كتبها أدباء معروفون، ومنذ ذلك التاريخ شهرت بنت يوليان باسم La Cava تحريفا للكلمة العربية «القحبة al Cahba».

وأرجعوا أسباب الانتصار إلى قوى خفية، وعادوا بها إلى زمن سحيق جداً، زعموا: « أن اليونان كانوا يسكنون بلاد الشرق قبل عهد الإسكندر فلما ظهرت الفرس، واستولت على البلاد، وزاحت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك، انتقل اليونان إلى جزيرة الأندلس لكونها طرفاً في آخر العيارة، ولم يكن لها ذكر إذ ذاك، ولا ملكها أحد من الملوك، ولم تك عامرة، وكان أول من عمر فيها واختطها أندلس بن يافث بن نوح، فسُميت باسمه، ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة عندهم على شكل طائر، رأسه المشرق، ورجلاه الجنوب والشمال، وما بينها بطنه، والمغرب ذنبه، وكانوا يزدرون المغرب لنسبته إلى أحسن أجزاء الطير. وكانت اليونان لا ترى فناء الأمم إلا بالحروب، لما فيها من الإضرار والاشتغال عن العلوم، وكانت عندهم من أهم الأمور، فلذلك انحازوا من بين يدي الفرس إلى الأندلس، فلما صاروا إليها أقبلوا على عمارتها، فشقوا الأنهار، وبنوا المعامل، وغرسوا الجنان والكروم، وشيدوا الأمصار، وملاؤها حرثاً ونسلاً ونباتاً، فعظمت وطابت، حتى قال قائلهم لما رأى بهجتها: إن الطائر الذي صُوِّرت هذه العماره على شكله، وكان المغرب ذنبه، لا بد أن يكون طاووساً، لأن معظم جمال الطاووس في ذنبه».

« اغتبط اليونان بالأندلس، واتخذوا من طليطلة دار الحكمة وعاصمة الملك، لأنها أواسط البلاد، وكان أول ما يشغلهم تحصينها عنمن يتصل به خبرها من الأمم، فنظروا فإذا هو لا يحسداهم على رغد العيش إلا أرباب الشقاء والشظف والتعب، وهم يومئذ طائفتان: العرب والبربر، فخافوهم على جزيرتهم العامرة، فعزموا على أن يتخذوا لهذين الجنسيتين من الناس طنسماً، فرصدوا لذلك أرسادا. ولما كان البربر بالقرب منهم، وليس لهم سوى تعدية البحر، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع، ازدادوا منهم نفوراً، وكانوا أكثر تحذراً من الاتصال بهم نسبا أو مجاورة، حتى ثبت ذلك في طبائعهم،

وصار بعضه مركبا في غرائزهم، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس، وبغضهم لهم، أبغضوهم وحسدوهم، فلم تجد أندلسيا إلا مبعضا بربريا، وبالعكس. إلا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس لوجود بعض الأشياء عندهم، وفقدتها ببلاد البربر».

«وكان بناوحي غرب الأندلس ملك يوناني، بجزيرة يقال لها قبادس Cadiz، وكانت له ابنة غاية في الجمال، فتسلمع بها ملوك الأندلس، وكانت الأندلس كثيرة الملوك، لكل بلدة أو بلدين ملك، فخطبوها، وختى أبوها إن زوجها من واحد أسخط الآخرين، فتحير، وأحضر ابنته، وكانت الحكمة مركبة في طبع القوم ذكورهم وإناثهم، ولذا قيل: الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أقوام من أهل الأرض: في أدمغة اليونان، وأيدي أهل الصين، وألسنة العرب. فقال لها: يابنية!، إن أصبحت على حيرة في أمرك ممن يخطبك من الملوك، وما أرضيت واحدا إلا أسخطت الآخرين فقالت له: اجعل الأمر إلى تخلص، فقال: وما تقترحين؟ فقالت: أن يكون ملكا حكما، فقال نعم ما اخترته لنفسك، فكتب في أجوبة الملوك الخطاب، أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم، فلما وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكما. وكان في الملوك الخاطبين حكيمان، فكتب كل واحد منهما: أنا الملك الحكيم، فلما وقف على كتابيها بق الأمر على إشكال، وهذان ملكان حكيمان، أيها أرضيت أسخطت الأخر. فقالت سأقترح على كل واحد منها أمراً يأتي به، فأيهما سبق إلى الفراغ مما التمس كنت زوجته، قال: وما الذي تقترحين عليهما؟ قالت إننا ساكنون بهذه الجزيرة ومحتاجون إلى رحي تدور بها، وإن مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجاري إليها من ذلك البر، ومقترحة على الأخر أن يتخذ لي طلسمًا يحصن به جزيرة الأندلس من البربر، فاستظرف أبوها ذلك. وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته، فأجاباه إلى ذلك، وتقاسماه على ما اختارا، وشرع كل

واحد منها في عمل ما أسند إليه».

«فأما صاحب الرحى فإنه عمد إلى أشكال اتخذها من الحجارة، نضد بعضها إلى بعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الأندلس والبر الكبير، في الموضع المعروف بزقاق سبته، وسدد الفرج التي بين الحجارة بما اقتضته حكمته، وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة، وآثاره باقية إلى اليوم في الزقاق الذي بين سبته والجزيرة الخضراء، وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الإسكندر قد عملها ليعبر عليها من سبته إلى الجزيرة الخضراء، والله أعلم أي القولين أصح، غير أن الشائع إلى الآن عند الناس هو الثاني. فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم، جلب الماء العذب من جبل عالٍ في البر الكبير، وسلطه من ساقية محكمة، وبنى بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية».

«وأما صاحب الطلسم فإنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصيد الموافق لعمله، غير أنه عمل أمره، وأحكمه، وابتنى بنيانا مربعا من حجر أبيض على ساحل البحر، في رمل متراكم، حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت، فلما انتهى البناء المربع إلى حيث اختار صُور من النحاس الأحمر والحديد المصق، المخلوطين بأحكام الخلط، صورة رجل بربرى وله لحية، وفي رأسه ذؤابة من شعر جعد قائمة في رأسه لجمودتها، وهو متابط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بالظف تصوير وأحكمه، في رجله نعل، وهو قائم من رأس البناء على مستهدف بمقدار رجله فقط، وهو شاهق في الهواء، طوله يُنف عن ستين أو سبعين ذراعا، وهو محدودب الأعلى، إلى أن ينتهي ما سعته قدر ذراع، وقد مَدَّ يده اليمنى بمفتاح قفل قابض مشبرا إلى البحر كأنه يقول: لا عبورا وكان من تأثير هذا الطلسم في البحر الذي تجاهه، أنه

لم يُر قط ساكنا، ولا كانت تجرى فيه قط سفينة بربر إلا سقط المفتاح من يده.»

«وكان الملكان اللذان عملا الرحي والطلسم يتسابقان إلى فراغ العمل إذ بالسبق يُستحق زواج المرأة، وكان صاحب الرحي فرغ أولا : لكنه أخفى أمره عن صاحب الطلسم لئلا يترك عمله فيبطل الطلسم، وبذلك تحظى المرأة بالأميرين : الرحي والطلسم. فلما علم باليوم الذى يفرغ صاحب الطلسم فى آخره، أجرى الماء فى الجزيرة من أوله، وأدار الرحي، واشتهر ذلك، فاتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو فى أعلى القبة يصقل وجهه، وكان الطلسم مذهبا، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتا، وحصل صاحب الرحي على المرأة والرحي والطلسم.»

«وكان من تقدم من ملوك اليونان نجح على الأندلس من البربر، فاتفق وجعلوا الطلسمات فى أوقات اختاروا أرضا لها، وأودعوا تلك الطلسمات تابوتا من الرحام، وتركوه فى بيت بطليطة، وركبوا على ذلك الباب قفلا، تأكيدا لحفظ ذلك البيت، فاستمر أمرهم على ذلك.»

«ولما حان وقت انقراض دولة من كان بالأندلس ودخول العرب والبربر إليها، وذلك بعد مضى ستة وعشرين ملكا من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطليطة، وكان لذريق هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم، فلما اقتعد أريكة الملك، قال لوزرائه وخواص دولته وأهل الرأى منهم : قد وقع فى نفسى من أمر هذا البيت الذى عليه ستة وعشرين قفلا شىء، وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه، لأنه لم يعمل عبثا، فقالوا : أيها الملك؛ صدقت، إنه لم يصنع عبثا؛ ولم يقل سدى؛ والرأى والمصلحة أن تلق أنت أيضا عليه قفلا؛ أسوة بمن تقدمك من الملوك، وآباؤك وأجدادك لم يهملوا هذا فلا تهمله؛ وسر

سيرهم؛ فقال لهم : إن نفسى تنازعنى إلى فتحه؛ ولا بد لى منه . فقالوا له :
 إن كنت تظن أن فيه مالا فقدره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره، ولا نحدث
 علينا بفتحه حادثا لا نعرف عاقبته؛ فأصر على ذلك؛ وكان رجلا مهيبا فلم
 يقدروا على مراجعته وأمر بفتح الأقفال، وكان على كل قفل مفتاحه معلقا؛
 فلما فتح الباب لم ير فى البيت شيئا إلا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة
 بالجواهر؛ وعليها مكتوب : هذه مائدة سليمان بن داود . ورأى فى البيت ذلك
 الثابوت وعليه قفل، ومفتاحه معلق، فلم يجد فيه سوى رق؛ وفى جوانب
 الثابوت صور فرسان مصورة بأصابع محكمة التصوير؛ على أشكال العرب :
 معمومون على ذوائب جعد، وعليهم الفراء، ومن تحتهم الخيل العربية، وهم
 متقلدون السيوف المحلاة، معتقلون الرمح، فأمر بنشر ذلك الرق، فإذا فيه متى
 فتح هذا البيت وهذا الثابوت المقلان بالحكمة دخل القوم الذين صورهم فى
 الثابوت إلى جزيرة الأندلس، وذهب ملك من فيها من أيديهم، وبسظلت
 حكمتهم . فلما سمع لذريق ما فى الرق ندم على ما فعل، وتحقق انقراض
 دولتهم، ولم يلبث إلا قليلا حتى سمع أن جيشا وصل من المشرق جهزه ملك
 العرب ليفتح بلاد الأندلس .

نحن، إذن، بإزاء أساطير فيها شيء من تاريخ، وتحاول أن تفسر التاريخ،
 وتلقى فيها عناصر هندية وإسلامية ويونانية ومسيحية، وفيما يبدو كانت روايتها
 شفهوية، وعناصرها وأحداثها أطول مما بين أيدينا بكثير، وأن المؤرخين وكانوا
 يحقرون القصص الشعبي ولا يرتقون به إلى مرتبة التاريخ الصحيح أغفلوا
 جانباً كبيراً منها، فليس ثمة ترابط بين أجزائها المختلفة، ويشعر القارئ لها أن
 كاتبها نافذ الصبر، يتعجل إنهاءها، ويقفز بين الأحداث قفزاً ليصل إلى
 النهاية.

ولم تكن أحداث الفتح الإسلامى لشبه الجزيرة الإيبيرية وحدها مناط

القصص نثرا كان أو شعرا، وإنما الأجداد التي صنعوها وهم في طريقهم من المشرق مارين بمصر وشمال أفريقية، أو ما حققوه من بطولات في العراق وإيران، أو ما توارثوه من بطولات هي جزء من تاريخ قبائلهم في عصر ما قبل الإسلام.

خمس وأربعون عاما مضت على الفتح الإسلامي، فلما جاء عبد الرحمن الداخل (٧٥٦-٧٨٨م) مؤسس الدولة الأموية، أدى استقرار الحياة في عهده، وعلى أيام خلفائه من بعده، إلى ارتفاع مستوى الحياة المادية عند كثيرين، وجرى المال وفيرا بين أيدي الناس، فأخذوا بأسباب الرق ومالوا إلى بناء القصور، وغرس الحدائق، والترقى في الرياش، وتجميل المساكن، والإقبال على الزهور، وإقامة التماثيل، واتخاذ التوافير، والميل إلى الطرب والشراب، ومع النغم والنشوة تكون الموسيقى، ومع الموسيقى يكون الغناء والرقص، وهكذا تحولت القصور إلى لون من المسارح تنفس فيها كل الفنون.

ولم تقتصر هذه المباحج على الطبقة الأرستقراطية أو الوسطى، فكان لعامة الناس مباحجه ومبازلهم وهم شعرهم أيضا، يقال في عامية ترضى رغائب كل القاطنين في الأندلس، علمية خاصة بالأندلس واليه تنسب فهي خليط من العربية ومن الرومانشية romance على السواء. ولقد ضاع أغلب ذلك، ولكن ديوان ابن قزمان، المتوفى ١١٦٠م، وكتب في العامية كله، وصلنا كاملا. ومن الواضح أن احتفاء الناس بتقيد الشعر الوجدان كان أشد من حرصهم على تقيد الشعر الملحمي الشعبي، أو ما هو بسيله، ربما لأن الشان، كما هو عليه الحال في أيامنا هذه، يرتبط على نحو وثيق بمستوى السامع وذوقه، واتجاهه العنصرى وعمره، وكان على الشاعر الجوال أن يرضى ذلك، ومن ثم فهو يدخل دائما على روايته من التحوير والتبديل، دون أن يتجاوز الخطوط الرئيسية للموضوع، ما يجعلها قادرة على تلبية رغائب أى طائفة من المستمعين، وهو

أمر لا يتأتى مع التدوين، وانقزام النص المسجل.

كان المجتمع الإسلامي الأندلسي في القرن الأول من نشأته، يتكون أساسا من الوافدين على شبه الجزيرة من العرب، عدنانيين وقحطانيين، أو بالتعبير الحديث من عرب الشمال وعرب الجنوب، ومن بربر وأفارقة، ومن الذين أسلموا من سكان الجزيرة الأصليين، ومن قلة منهم أطلق عليها اسم المستعربين los Mozarabes، حافظوا على كاثوليكيتهم، وتمتعوا بحرية دينية واسعة، فكانت لهم كنائسهم وطقوسهم، وحافظوا على لغتهم الرومانثية، ولكنهم إلى جانبها اتخذوا العربية لغة ويرعوا فيها، وكان منهم من يقول فيها الشعر، أو ينثرها أدبا على نحو رفيع. ومن ثم كان الأندلس يضطرب بألوان من العنف القبلي، ظاهرة أو خفية، كل جماعة تتعصب لتاريخها وقبيلها، وأكد أن تصور أن مادة السمر لعرب الجنوب كانت تدور حول سيف بن ذى يزن ونضاله ضد الأحباش من أجل حرية قومه، على حين كان عرب الشمال بدورهم يتحدثون عن بطولاتهم في صراعاتهم ضد الفرس آونة، ثم مابعد الإسلام ضد المشركين آونة أخرى، وعن أمجادهم الإسلامية أخيرا، ففيهم ظهر الرسول، وهم الذين حملوا دينه إلى شتى بقاع العالم. وأكدوا كان للبربر الكثير من أمجادهم التاريخية، وحرورهم ضد الإسلام أو معه أو قبله، يرددونها ليواجهوا بها موجة التفاخر عند الآخرين. ولعل عدداً غير قليل من الأفارقة السودانيين كانوا أقرب إلى قصة عنتره، الشاعر العربي الأفريق الأسود، وقد حررته بطولته وشجاعته في قصة طويلة تحفظ كتب الأدب العربي الجانب التاريخي منها، وتحفظ بها ذواكر الناس أسطورة جميلة، يختلط فيها الحب بالحرب، والغرام بالإقدام، وكان المسلمون الجدد من الإسبان يبحثون عن تاريخهم القديم يحاولون أن يلتقطوا من أعماقه أثرا يستندون إليه، فإذا عز عليهم الأمر، استعاضوا عنه بثوراتهم الخادة في البدء، ثم كان لهم من بعد

عمرو بن حفصون (٨٨٠-٩١٧م)، أو حتى السيد نفسه أحياناً، لم يكن السيد بطلاً مسيحياً خالصاً كما سئى بعد حين. أما المسلمون الصالحون، فقد وجدوا في تاريخ الصحابة وبطولاتهم وقصص الزاهدين وكراماتهم، زاداً يغنيهم عن كل ما سبق من قصص جاهلي، أو وثني، أو قبلي، أو لا يتفق ومناهج الإسلام في الحياة.

كانت أيام العرب في جاهليتهم مصدراً ثراً لسمر حى، بما تضم من بطولات في الحرب، ولسن في القول، وإفحام في الخصومة، فراجت بين الأندلسيين وشاع خبرها، وليس من باب الصدفة وحدها أن كتاب الأغاني لمؤلفه أبو الفرج الأصفهاني، المتوفى عام ٩٦٧ ميلادية، وهو أوفى مصدر في هذه المادة، قصصاً وتاريخاً وشعراً، عرف في الأندلس قبل أن يعرف في العراق، رغم أن مؤلفه من المشرق، فقد حرص الحكم الثاني ٩٦١-٩٧٦م، على أن يحصل على أول نسخة منه، مقابل إعطاء المؤلف ألف دينار من الذهب الخالص. وأن المصدر التالي له في سعة المادة، وإن فاقه في التنظيم والتبويب وسبقه في التأليف، هو لأندلسي أصيل لم يرح الأندلس طوال حياته، وأعنى به كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، المتوفى عام ٩٤٠م، ففيه فصول طوال عن أيام العرب وحروبهم وبطولاتهم، هي جماع ما قرأ المؤلف أو درس أو سمع في وطنه. ويقص علينا ابن بسام المتوفى عام ١١٤٧م وكان معاصراً للسيد، في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة أن روى ديات دى بيبار الملقب بالسيد: «كانت تدرس بين يديه الكتب، وتقرأ عليه سير العرب، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب بن أبي صفرة استخفه الطرب، وطفق يعجب منها ويعجب».

فإذا تجاوزنا قصص أيام العرب، يغلب على ظننا أن قصة الهلالية كانت أكثر الحكايات الشعبية رواجاً بين الأندلسيين في القرنين الحادى عشر

والثاني عشر الميلاديين، لأنها تمثل التمرد على السلطة أولاً، وتعكس الصراع بين العرب والبربر قوياً ثانياً، وفيها من الأحداث والشخصيات ما يجعلها قريبة من أذواق الناس جميعاً، وكان مسرح أحداثها المنطقة الشاسعة التي تبدأ من جزيرة العرب وتنتهي بمراكش. وكان الأندلس في هذين القرنين، الحادي عشر والثاني عشر، وما قبلهما، مهياً تماماً لأن يعطى للقصة سمعه وقلبه، وأن يبها مشاعره واهتمامه، فقد بلغ التنافس بين العرب والبربر والصقالبة والمسلمين الجدد وطوائف أخرى أشده، وكان الناس ضائقين كأعنف ما يكون الضيق باستبداد المنصور بن أبي عامر المتوفى ١٠٠١م، وضائقون من بعده على نحو أشد بملوك الطوائف، لتخاذلهم واضطراب الأمر على أيديهم، وعجزهم عن مواجهة الخطر المسيحي المتزايد في شمال الجزيرة، وخلال هذا الضيق تطلعوا لنصرة المغرب لهم، واهتموا بما يجري من أحداث في هذا الجانب من بلاد المسلمين. وقبل ذلك كان لهم مع الدولة الفاطمية صراع، وكانت هذه إبان نشأتها في المغرب ترنو ببيصرها إلى الأندلس، وكان حكام الأندلس أنفسهم يتخوفون من الفاطميين، وكان الخليفة الشيعي الذي بدأ دعوته في إفريقية، وأقام واحدة من أزهى الدول الإسلامية في العصر الوسيط في القاهرة، مشار إعجاب العامة ومحط أنظارهم، سواء كانوا أصدقاء له راضين عنه أو أعداء له ساخطين عليه. وكانت الدولة الفاطمية تمثل كلا العنصرين الإسلاميين اللذين وفدا على الأندلس من خارجه، فقد كان منشئها عربياً قرشياً، أو هكذا زعم لنفسه، ولكنها نهضت أول ما قامت على أكتاف قبيلتين بربريتين، هما كتامة وصنهاجة. بل إن الرواية الشعبية حين انتصرت بالهلالية على أمراء شمال إفريقية، فتقاسموا البلاد فيما بينهم، جعلت الأندلس من نصيب البطل أبي زيد الهلالي وأنها آلت لأولاده من بعده وعاشوا فيها.

وعندما أقول: إن شبه الجزيرة الإيبيرية كان يموج بألوان من حكايات

البطولة، تغذى حماسة كل قبيل، لا أعنى لونا قصصيا محددًا، تتوافر فيه أنماط فنية معينة، فمثل هذا الأدب لا تبدعه الشعوب على نحو جماعى، وإنما أعنى حديثًا يمجّد البطولة، ويدور عن الحرب، يعتمد أساسًا على التاريخ، ولكن لحمته وسداه من الخيال والتلفيق. ويمكن القول أن شطراً لا يمكن تحديده من سيرة بنى هلال لم يكن معروفاً في الأندلس فحسب، وإنما كان ذا تأثير مباشر أو غير مباشر، في نشأة الشعر الملحمى الإسباني. ولقد كانت سيرة بنى هلال في البدء، مقطوعات طويلة من الأشعار الشعبية التى تغنى، تعرض لأحداث متعددة، ولم تكن قد دونت بعد، ولم يكن فى وسع أى شاعر جوال أن يحفظها كلها، فيقتصر منها على مقطوعات تتصل بالأحداث القريبة إلى وجدانه وذوقه، أو إذا شئنا الدقة وجدان وذوق الذين يغنى لهم ولكمى تنتشر على نحو واسع بين المسلمين والمسيحيين لم تكن فى حاجة إلى ترجمة، شأنها شأن الأجزاء العربية، فقد كانت تقال، وحتى تكتب، فى لغة مفهومة عند عامة الأندلسيين، يتحدثون العربية أو يتخذون الرومانثية لسانا.

كيف تمت عملية الانتقال الثقافى؟

من الثابت أن قرطبة فى القرن العاشر الميلادى بلغت مستوى عالياً من الحضارة، وتحولت إلى مركز ثقافى هام ينافس بغداد والقاهرة، ولكنها لم تكن وحدها فى هذا المجال، وإنما شاركتها على امتداد الأندلس مدن أخرى كثيرة، كبرى مثل طليطلة وإشبيلية وغرناطة وسرقسطة وبلنسية، أو صغيرة مثل شلب وبظليوس وجيان ومرسية. وبقيت هذه المدن تضىء بنور مستعار من الثقافة الإسلامية لمدة طويلة بعد سقوطها فى أيدي المسيحيين. ولم يكن النشاط الفكرى والروحى فى هذا الجانب من أوروبا يعرف فى تلك الحقبة الخصيبة التى امتدت حتى القرن الثالث عشر أية حدود دينية، وإنما تغشى ضياؤه الناس جميعا، وامتد عبر الجزيرة كلها. فلم تكن فى الأندلس حدود بين الجانب الذى

يعيش فيه المسلمون، والآخر الذي يعيش فيه المسيحيون، بالمعنى الذي نفهمه اليوم، وإنما قامت بينهما سهول شاسعة، واعتاد المسلمون والمسيحيون أن يتلاقوا فيها، ويخالط بعضهم بعضاً. ولم تكن هناك حواجز من الكراهية والبغضاء بين الأجناس والأديان المختلفة على نحو ما تصوره في وقتنا الحاضر، والأفكار التي تصور أن العداة في الأندلس كان مستحكما بين كل المسلمين وبين كل المسيحيين، في كل الأوقات، هي أفكار خاطئة، تعود إلى روايات ملفقة، صنعها المتعصبون فيما بعد زوال دولة الإسلام.

وإلى جانب تلاقى العامة، وهجراتهم وتحركاتهم، كان التزاور بين أمراء المسيحيين في الشمال، وعلية المسلمين في الجنوب شائعاً، وعادة كان يصحب كل منهم شعراءه ومنشديه عند القيام بزياراته، وأحياناً كان يجمع بينهم التحالف أو الصداقة، ومنذ بداية القرن الحادى عشر نلمس ظاهرة فريدة، هي تحالف أمير مسلم مع أمير مسيحي، لمحاربة آخر مسلم أو مسيحي، ووجود جنود مختلطين من مسلمين ومسيحيين، في جيوش الشمال المسيحيين أو أمراء الجنوب المسلمين، وظهور قواد لا يديون بالولاء لأحد، وإنما يقاتلون بجيش مكون من عناصر مختلطة، مع من يدفع لهم أجراً أكبر، أو ضد من يلتمسون فيه ضعفاً، أو طلباً للنعائم، أو حباً في المغامرة.

لعب المغنون والشعراء الخوانون، محترفين أو هواة، الدور الأول في إشاعة الغناء العربي والموسيقا العربية والقصص العربي منظوماً. فعندما أخذ سلطان المسلمين في الانحسار، وبدأت كبريات الحواضر الإسلامية تسقط في يد المسيحيين واحدة وراء أخرى، كانوا يستولون على القصور بمن فيها من شعراء عرب يتبعون أسرى، ثم يعيشون في كنف الأمراء الجدد، ولم يكن المغنون في الجانب المسيحي يجمعون عن الذهاب إلى كبريات المدن الإسلامية في اجنوب بحثاً عن آلات لعزف العربية التي يشتدون شعرهم على وقع أنغامها. كما كان

سادتهم الأمراء يذهبون إليها بحثاً عن مظاهر الأناقة والأهبة أو العلاج. ولم تخل قصور الأمراء المسيحيين من الشعراء العرب، وأى رجل ميسور الحال كان إذا أقام حفلاً دعا إليه أولئك الشعراء، وكان بلاط الملك شاذجه الخامس، كنت قشتالة في عام ١٢٩٣م، يضم ستة وعشرين شاعراً مسلماً بينهم إمرأتان، واثني عشر شاعراً مسيحياً، وشاعراً يهودياً واحداً. وفي القرن الخامس عشر وُجد في محاضر مجلس بلدية الترويل بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٤٤٣م، طلب من الأعضاء بدفع عشر قطع نقدية للدعو محمد جاجو Mahoma Chacho من أهل مدينة البونتا، وهو مسلم كما يبدو من اسمه، لأنه قام بالعزف على الآلة الموسيقية Cazamora في احتفالات البلدية. وشكا مجمع الفسائسة الذي اجتمع في بلد الوليد في هذا الوقت، من أن المسيحيين يحملون المسلمين واليهود إلى الكنائس ليغنوا فيها ويعزفون. وقد شُهرت مدينة شاطبة بنوع خاص، بأنها موطن هؤلاء المسلمين الذين يجدون الغناء والإنشاد والعزف، ويدعون إليه، أو يذهبون طلباً للرزق، عبر مقاطعتي قشتالة Castilla ونبرة Navarra. ولدنا رواية ترجع إلى نفس الفترة عن شاب مغن فقير اسمه Diego Arias de Avila كان يبيع التوابل في مدينة شقوبية ثم «يجمع حوله المغنين العرب، وجماعات القرويين، وأنه كان شغوفاً بهذا العمل».

ولم يكن دور المرأة الأسيرة بأقل أهمية في نشر هذا اللون من الثقافة، فقد كن ذوات ثقافة عالية، ومعرفة واسعة بالموسيقا والغناء والأدب والتاريخ، ولم يكن مجرد مصادفة بحته أن المرأة البروفانسية كانت أول امرأة أوروبية اشتغلت بالأدب، فقد كانت مقاطعة بروفانس تعرف ابتداء من القرن الثاني عشر أفواجا من هؤلاء الأسيرات المسلمات المتأدبات المثقفات، أما الجانب المسيحي من الأندلس فقد عرفهن قبل ذلك بكثير. يقص علينا نسطيب القرطبي ابن الكتاني أنه حضر حفلاً في مدينة برغش Burgos أقيم في قصر شاذجه غرسية

كنت قشتالة (٩٩٥-١٠١٧م)، وقد تميز الحفل بعدد من المغنيات والراقصات، أهداهن إليه خليفة قرطبة، فأمرت زوج شالجبه واحدة منهن بالغناء، فغنت بالعربية، وكان صوتها جميلاً، وفجأة انفجرت إحدى الجوارى بأكية، فاقترب منها ابن الكتاني وسألها عن السبب، فقالت له: هذه الأشعار التي تغني بها هي لأب سليمان بن مهران السرقسطي، إنني أسيرة هنا، ولا أعرف من أخبار أسرق شيئاً، ولم تذكر الرواية هذه الأشعار، ولكنني تأملت الأشعار القليلة التي أوردها ابن بسام في كتابه «الذخيرة»، عند ترجمته لسليمان هذا، فوجدت أن الأبيات التالية أشدها رقة وإثارة وحنيناً وأرجح أنها هي التي كانت تغني:

خليلٌ ما للريح تَأقُ كأنما	يخالطها عند الهبوبِ خلوقُ
أم الريحُ جاءتُ من بلادِ أحبتي	فأحسبها عَرَفَ الحبيبِ تسوقُ
سقى الله أرضاً حلها الأغيذ الذي	له بين أحناءِ الضلوعِ حريقُ
أصارَ فؤادي فرقتين فعنده	فريقُ، وعندي للسباقِ فريقُ

كان عدد هؤلاء الأسيرات كثيراً، ودورهن كسفيرات لنقل الثقافة كبيراً، أكبر مما نتصور، على امتداد الأندلس كله، أو حتى فيما وراء حدوده في مقاطعة بروفانس وغيرها، ولنتصور هذا الدور يمكن أن نقف عند أسرى معركة واحدة، هي معركة بريسشتر التي وقعت عام ١٠٦٤م، وكانت الغلبة فيها للمسيحيين، فقد أسروا بعد النصر من بنات الطبقة العالية والمتوسطة ما يقدره المؤرخون العرب بمائة ألف من النساء والأطفال، لأن الرجال قتلوا في المعركة، وهو رقم يحمل طابع المبالغة، ولكنه يشير على أي حال إلى أن العدد كان كثيراً، وقد نقل عليه القوم هؤلاء الأسيرات إلى دورهم وقصوهم، وكان احتفاؤهم بهن كبيراً، يروي المؤرخ ابن حيان:

« أن بعض تجار اليهود جاء بريشتر بعد الحادثة ملتصقاً فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا من أهلها، حصلن في سهم قومس كان يعرفه، قال : فُهِدِيْتُ إلى منزله فيها، واستأذنت عليه، فوجدته جالساً مكان رب الدار، مستويّاً على فراشه، رافلاً في نقيس ثيابه، والمجلس والسرير كما خلّفهما ربهما يوم محنته، لم يغير من ريشتهما وزينتهما، ووصائفه مضمومات الشعور، قائمات على رأسه، ساعيات في خدمته، فرحب بي، وسألني عن قصدي فعرفتُه وجهه، وأشرت إلى وفور ما أبدله في بعض اللواق على رأسه، وفيهن كانت حاجتي، فتبسم وقال بلسانه، ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك؟، أعرضُ عمّن هنا وتعرض لمن شئت ممن صيرته لخصتي من سبي وأسراي، أقارنك فيمن شئت منهن. فقلت له : أما الدخول إلى الحصن فلا رأى لي فيه، ويقربك أنت ، وفي كتفك اطمأنتت، فسُمّني ببعض من هنا فإن أصير إلى رغبتك، فقال : وما عندك؟ قلت : العين الكثير الطيب، والبز الرفيع الغريب. فقال : كأنك تُشهيّني ما ليس عندي، يا « باجة »، ينادي بعض أولئك الوصائف ، يريد « يا بهجة » فغيره بعجمته : قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصندوق، فقامت إليه وأقبلت بيدر الذنانير، وأكياس الدراهم، وأسفاط الخلى، فكُشف وجُعِل بين يدي العليج حتى كادت توارى شخصه، ثم قال لها : أدق إلينا من تلك التخوت، فأذنت منه عدة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر، مما حار له ناظري وُهِتْ، واسترذلت ما عندي، ثم قال : لقد كثر هذا عندي حتى ما ألد به، ثم حلف بالإله أنه لو لم يكن عنده شيء من هذا ، ثم بُذِل بأجمعه في ثمن تلك ما سَخَتْ بها يدي، فهي ابنة صاحب المنزل، وله حسب في قومه، اصطفيتها لولادق لمزيد جمالها، حسباً كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم، وقد رد لنا الكرة عليهم، فصرنا فيما تراه وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة، وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية أخرى، مغنيةٌ والدها التي

كانت تشدو له على نشواته، إلى أن أيقظناه من نوماته، يا فلانة - يناديها
 بلكنته - خذي عودك فغنى زائرنا بشجوك. قال : فأخذت العود، وقعدت
 نموته، وإن لاتأمل دمعها يقطر على خدها، فتسارق العليح مسحه، وانسدفت
 تغنى بشعر ما فهمته أنا، فضلا عن العليح، فكان من الغريب أن حث شربه
 هو عليه، وأظهر الطرب منه، فلما يثست مما عنده قمت منطلقاً عنه، وارتدت
 لتجارق سواه، واطلعت لكثرة ما لدى القوم من السبي والمغنم على ما طال
 عجبى به»

فالمرأة أسيرة في البدء، ثم زوجة أو وصيفة أو عشيقة في النهاية، تلعب
 دوراً قوى التأثير على الرجل الذى اصطفاها، ولما كانت المرأة الأندلسية المسلمة
 عادة أرق من الرجل المسيحي الذى آل إليه أمرها، فهي تطبعه بطابعها، يجب
 ما تحب، ويكره ما تكره، وأخيراً يتعلم منها لغتها العربية، فصيحة أو عامية،
 وما يتصل منها بالجانب العاطفي والعائلي على نحو أخص، وتأخذه بتقاليد
 مجتمعا وبيئتها، ومع هؤلاء أو بعدهن، كان يجيء الشعراء الجوالون، ينشدون
 القصص العري، واقتداء بهم، وتقليداً لهم، بدأ الجانب المسيحي، بالدقة في
 مكان ما على الحدود بين المسلمين والمسيحيين، يتها لتكون له قصة على غمط
 قصة الملالية وسيرتهم، تشد وتروى، ويستمتع لها الناس معجبين مبهورين .

كان الشاعر الجوال، في المدلول الواسع للكلمة، على نحو ما سئرى
 صاحب دور كبير في إشاعة الثقافة على امتداد الأندلس كله، بجانبه الإسلامى
 والمسيحي، ورغم ذلك فإننا نجهد طبيعته وفنه، ومن ثم آثرت أن أخصه
 بمحدث خاص.